



طرح على الرئيس الروسي فلاديمير بوتين السؤال التالي:

ما تبريرك للتدخل العسكري في سوريا؟ فأجاب: «الحرب على الإرهاب المتمثل بتنظيم «الدولة الإسلامية» (داعش)، وهي حرب استباقية حرصاً على أمننا القومي، وإذا لم نتمكن من القضاء على هذه المجموعات الإرهابية، أخشى أن نجد «داعش» في عقر الدار في روسيا».

هذا هو تفسير أو تبرير القرار بالتدخل العسكري في سوريا، وهو يقتصر على التدخل الجوي، أي مشاركة المقاتلات الروسية مع استبعاد التدخل البري.

كيف حدث هذا الموقف المستجد؟ وما تداعياته الفعلية والافتراضية؟ ما أعلن «أن السلطات الشرعية في سوريا والممثلة بالرئيس بشار الأسد، تقدمت بطلب التدخل من موسكو لمواجهة الأخطار المتزايدة من تنظيم «داعش» وسائر القوات الإرهابية الموجودة في سوريا».

في هذه الأثناء، عقد البرلمان الروسي واللجان المتفرعة عنه كافة اجتماعاً، وتمت الموافقة بإجماع الأعضاء على تفويض السلطات القيام بالمهام المطلوبة خارج أراضي الاتحاد الروسي. وصاحت العالم صباح الثلاثاء الفائت، على قيام الطائرات الروسية بأولى مهامها بقصف مراكز محددة لجماعات «داعش» في مدن سوريا.

وفور شروع هذه الأخبار، بدأت المواقف المتناقضة حول هذا التحرك بالظهور، وتفاوت ردود الأفعال بين مصدر وآخر.

ففيما رحبت بعض الأوساط بالخطوة من منطلق التركيز على توجيه الضربات الجوية على تنظيم «داعش» وشركائه، اعتبرت الأوساط السورية المعارضة أن ما جرى «عملية احتلال» روسي لسوريا، وأن الدور الحقيقي لهذا التدخل تأمين مزيد من الحماية لنظام الرئيس الأسد تحت ستار مكافحة الإرهاب».

وطرحت الخطوة الروسية تساؤلات كثيرة حول أبعاد القرار الروسي والتداعيات التي قد تترتب عليه.

فأولاً: لماذا أقدمت روسيا على التدخل العسكري (الجوي فقط)، وفي هذا التوقيت بالذات؟

يجيب بعض المصادر الروسية بالقول: هذه الخطوة تحدث بعد ما يقرب من خمس سنوات من اندلاع شرارة الأحداث في

سورية، وبروز تنظيم «داعش» أدخل عاملاً رئيسياً على مسار الأحداث. ويضيف: من خلال متابعة روسيا لما يجري في المنطقة، وخاصة تنامي نشاطات الإرهاب التكفيري، فإن ما يعرف بقوات التحالف الغربي التي تضم أكثر من أربعين دولة، لم يتمكن من تحقيق إنجازات واضحة أو محددة ضد مقاتلي «داعش».

ثم إن الرئيس بوتين أخذ هذا القرار بعدما استشعر أخطار الإرهاب التكفيري على الداخل الروسي. ومن هذا المنطلق، يعتبر أن ما أقدمت عليه الطائرات العسكرية الروسية يأتي في سياق الدفاع عن النفس.

وفي سعي إلى التخفيف من وطأه ردات الفعل على هذا الإجراء، صرّح مصدر روسي بالقول: «هذا الإجراء تدبير مؤقت فرضته بعض الظروف المعينة». وللمناسبة، فهذا التعديل «موقت» مألف جدًا لدى اللبنانيين، وخاصة خلال وجود القوات السورية على الأراضي اللبنانية وعبر الشعار المثلث: «هذا التدخل شرعي وضروري ومؤقت»، وكان يقال مثل هذا الكلام للأطراف التي كانت تعارض الوجود العسكري والسياسي والمخابراتي في لبنان، وذلك من قبيل التفسير التالي:

شرعي: الإشارة إلى أن هذه القوات ليست احتلالاً بل هي نتاج تسوية إقليمية دولية في حينه فوضت بموجبها الولايات المتحدة سورية للاهتمام بالشأن اللبناني. أما تعبير «ضروري» فللقول أن هذا الوجود حتمته الضرورات الأمنية وغير الأمنية. أما تعبير «موقت» فلتطمئن فريق من اللبنانيين إلى أن الوجود السوري لن تطول إقامته في لبنان أكثر من فترة محدودة... وبقيمة التفاصيل معروفة للجميع.

وبالعودة إلى القرار الروسي الذي خطف كل الأضواء، قد يكون مفيداً استحضار بعض ما كتب وقيل عن أحداث سورية، وأخطار «داعش»، ومن ذلك وتحت عنوان «تسونامي الداعشي»: «المواجهة ليست بحجم التحدي». ونضيف: «إن تنظيم «داعش» يتمدد في كل الاتجاهات أفقياً عمودياً، ويفتح له فروعاً في الأوطان والمهاجر، وقد أصبح «عامل جذب» لكثير من الشباب والشابات من مختلف دول الغرب، وهذا ما اكتشفته سلطات هذه الدول متأخرة بعد سفر العديد من أبنائها إلى المنطقة والالتحاق بداعش» («الحياة» 4/7/2015).

والقصد لفت الانتباه إلى عجز أكثر من نظام في المنطقة عن مواجهة «داعش» وتمدد الأخطار التي ينطوي عليها هذا النوع من الإرهاب التكفيري، وبالتالي فالمطلوب مزيد من الجهد لتعزيز الدفاعات العربية المعنية بالأزمات القائمة والحدّ من انتشار هذا النوع من الإرهاب.

ثانياً: كان الأسبوع المنصرم أسبوع «الإرهاب وسوريا» بامتياز خلال الاجتماعات والمداولات التي حفلت بها المنظمة الدولية في نيويورك.

وإذا ما التقى بعض الأفكار مع بعض الواقع السائد في المنطقة وبخاصة في سورية والعراق، فإن خلافاً قد استعر من حول دور الرئيس بشار الأسد بين مؤيد لبقاءه من منطلق المشارك في حل الأزمة (وتأتي روسيا في طليعة هذا المعسك)، ومعارض بعنف لاستمراره في السلطة، كالململكة العربية السعودية ودول أخرى، مع موافقة زئبيقة للولايات المتحدة الأمريكية، ومراوحة بين التأييد المشروط لاستمراره والمناداة بعدم الرحيل الآن.

وفي هذا السياق يتضح التالي:

الرئيس بوتين متمسك «بحصة الرئيس الأسد» حتى الثمالة، وبخاصة أن العالم كله يدرك أن الدور الروسي كان ولا يزال الرافعة الأساسية للنظام في سورية. وفي هذا المجال، يستطيع الأسد الزعم بأن العالم بأسره منقسم حول مصيره ودوره المستقبلي. على أن القناعة ترسخت في الآونة الأخيرة بأن استهداف الأسد لا يجب أن يعني تدمير النظام بكامل هيئاته، وأن

التجارب المريرة التي شهدتها المنطقة منذ الغزو الغربي للعراق تبقى راسخة في الأذهان، ومن الواجب عدم تكرار حدوث المغامرة مرة أخرى. ومن هنا، كانت عملية الفصل بالنسبة إلى بعض الدول بين النظام ورأس النظام.

وفي سياق متصل، تعتبر أوساط إقليمية ودولية أن التدخل العسكري الروسي سيطيل عمر النظام، وهو بهذا التصرف يوفر له الغطاء لأمد غير محدود، خصوصاً أن بوتين أبلغ كل من فاتحه في موضوع مستقبل الأسد، أن مصيره يقرره الشعب السوري في أي انتخابات يمكن أن تجري.

كذلك، فالمعارضات السورية المنتشرة بين ضفاف البوسفور والدردنيل وسائر العواصم الغربية، لم تتمكن حتى الآن من إيجاد صيغة مقنعة بأن هذه المعارضات يمكن أن تشكل بديلاً للنظام.

وبعد...

وحتى لا نضيع عن بوصلة الأحداث في المنطقة، يجب أن نتذكر التفاهم الغربي - الإيراني حول «الملف النووي».

فخلال الفترة التي سبقت إعلان التوصل إليه، كان يقال لدى بروز أي أزمة في الإقليم أو في العالم: الجميع في انتظار «الاتفاق النووي». وحصل الاتفاق فعلاً بعد المفاوضات الشاقة والمأثوية المعروفة، واليوم ولدى حدوث أي تطور أو أزمة من أي نوع، يقال أن هذا من نتاج التفاهم النووي الإيراني.

ولدى وقوع أي حدث من حضرموت والربع الخالي إلى واشنطن ونيويورك، هناك خيط متراصط تسير ضمنه التطورات الحالية والآتية، ومنذ الإعلان عن عدم تمكّن الكونغرس الأميركي من استخدام «الفیتو» ضد الاتفاق، يجري أكثر من طرف إقليمي أو دولي حسابات الخسائر والأرباح، وهذا هي الوفود الدولية تسرع في الهرولة إلى طهران طمعاً بالحصول على اتفاق في مرحلة ما بعد حصول إيران على أموالها المجمدة لدى المصادر الأميركية والغربية.

على أن أحداث الأيام الماضية، وخاصة كارثة الحجيج على صعيد مني في مكة المكرمة، ألقت بظلالها على العلاقات السعودية - الإيرانية، والمؤمل لا تتخذ تداعيات هذا الحدث الجلل المزيد من التوتر وتأجيج الأجواء الإقليمية وال العامة، فالمنطقة لا تحتاج إلى «توترات إضافية»، خصوصاً في هذا التوقيت بالذات. على صعيد آخر، ستتشكلزيارة المرتبطة لخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز إلى روسيا «في القريب العاجل»، زخماً جديداً في العلاقات السعودية - الروسية، وسبق لولي ولـي العهد الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز، أن قام بزيارة قصيرة إلى موسكو حيث جرى الإعداد لزيارة الملك سلمان إلى الاتحاد الروسي.

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى ما ورد في حديث وزير الخارجية السعودية السيد عادل الجبير، إلى «الحياة»: «إن العلاقات السعودية - الروسية - يجب أن تكون أوسع مما هي عليه»، ويضيف: «إن حجم المملكة العربية السعودية وحجم روسيا اقتصادياً وسياسياً، لا يتماشيان وحجم العلاقات القائمة بين البلدين... ويجب أن يكون هناك سعي إلى تعزيز هذه العلاقات وتقويتها في كل المجالات»، وأضاف: «بالطبع هناك اختلاف في مواقف وعلى أمور معينة، لكن هذا لا يعني أننا لا نسعى إلى تحسين العلاقات مع روسيا».

ومن هذا المنطلق، يجب النظر إلى زيارة الملك سلمان بن عبدالعزيز إلى موسكو، وخاصة أن السياسة السعودية تتحدث عن «علاقات استراتيجية مع روسيا إضافة إلى الجوانب الأخرى من التعاون». إن قرار روسيا بانخراط طيرانها العسكري ضد تنظيم «داعش» وشركائه، سيدخل أكثر من عامل على التطورات السورية والإقليمية. والمطلوب وفي أقصى سرعة، تأليف لجنة ناظمة لحركة الطيران في الأجواء السورية نظراً إلى الازدحام الشديد في فضاء المنطقة.

أما الكلام عن خلافات بين روسيا والولايات المتحدة، وخاصة بين الوزيرين سيرغي لافروف وجون كيري حول قرار موسكو، فليس دقيقاً لأن غرفة العمليات الروسية تبلغ غرفة العمليات الأمريكية قبل ساعة من تنفيذ أي طلعات استهداف لموقع «داعش»، وعسى ألا تخطئ الطائرات الروسية الهدف المطلوب.

وقبل ساعات قليلة، سُئل الوزير لافروف:

هل قواتكم الجوية تقصف موقع غير «داعش» من المعارضة السورية مثلًا؟ فأجاب بالنفي، وأضاف أن قوات التحالف الغربي تقول إنها تقصف مراكز «داعش»، ولا نعرف ما إذا كانت هذه المعلومات دقيقة. ونحن نفعل الشيء نفسه!

سؤال: هل ستتدخلون في العراق؟

جواب: إذا تلقينا طلباً للمساعدة سندرس الأمر، لكن نحن لا نأتي بلا دعوة!

فهل تتسع «الصفقة الروسية» لتعقب «أنصار داعش» في العراق كما في سوريا؟

نحن نعيش زمن اللامعقول عندما يصبح معقولاً في منطقة الشرق الأوسط..!

الحياة اللندنية

المصادر: